سلوك حضارى

obeikandl.com

obeikandl.com

سلوك حضارى

فضل الله الإنسان على سائر المخلوقات كلها ، حيث نفخ فيه من روحه ، وأمر ملائكته بأن يسجدوا له تكريماً وتشريفاً ، وسخر له ما فى الأرض جميعاً ، ولذا كان لزاماً على الإنسان أن يشكر الله على هذه النعم ، وغيرها من النعم التى لا تعد ولا تحصى . ومن أولى واجبات الشكر والعبادة لله العلى القدير ، ألا يعتدى على أخيه الإنسان ، فيحافظ على النفس ، والعرض ، والنسب ، والمال ، فقد جعل الله الاعتداء عليها من الكبائر ، فحمى بذلك حرمة الإنسان ، وصان قدسيته ، فقد قال رسول الله ﷺ فى خطبته المشهورة فى حجة الوداع : " **أيها الناس ! إن دماءكم ، وأموالكم ، وأعراضكم ، حرام عليكم ، كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا** ..... " كلمات قليلة ، تحمل مبادئ عامة - لم تتوصل المجتمعات البشرية إلى الاعتراف بها إلا فى القرن العشرين ، وذلك فى مبادئ حقوق الإنسان التى أعلنتها الأمم المتحدة فى منتصف القرن الماضى — ولم تكن هذه هى أول الوصايا التى تأمر بالحفاظ على النفس ، والأعراض ، والأموال ، بل سبقتها أوامر محددة للجيوش ، ينبغى على المحاربين ألا يتجاوزوها ، ومن بين هذه المبادئ وصايا رسول الله ﷺ للجيوش والسرايا التى كان يرسلها لرد الاعتداء على المسلمين ، أو لتأديب الخارجين عن القانون ، فقد كان ﷺ يأمرهم بألا يقطعوا شجراً ، ولا يهدموا بيتاً ، ولا يقتلوا طفلاً ولا امرأة ، ولا أعزل من السلاح (تعبير عن المدنيين الذين لم ينخرطوا فى سلك الجيش المحارب) ، كما بين لهم أنهم سيجدون أناساً يعبدون الله فى صوامعهم ، فليتركوهم وشأنهم ، أى لا يقاتل ، ولا يُقْتَل — إن اقتضى الأمر ذلك — إلا من يحمل السلاح ، ويستعمله فى مواجهة المسلمين .

أرسى الإسلام هذه المبادئ ، فأصبحت قواعد مقدسة ، يلتزم بها الجيش فى ميادين القتال ، فحفظ بذلك أرواح المدنيين ، وصان البيئة من التدمير والتخريب ، وتلك أمور لا يلتزم بها إلا المتحضرون ، ولم يصل المجتمع الدولى إلى صياغتها فى مبادئ إلا فى منتصف

القرن العشرين ، بل إنه على الرغم من صدور هذا البيان من المجتمع الدولى ، وموافقة جميع الأعضاء عليه ، وتشدق أبواق الدعاية وآلات البث الإعلامى بكل أنواعها ، بمبادئ حقوق الإنسان ، ودعوة الدول المارقة — كما يسمونها — إلى الالتزام بهذه المبادئ التى ارتضتها الأمم المتحدة إطاراً لحماية حقوق الإنسان ، فلا زالت بعض الدول الكبرى — التى تدعى أنها حامية هذه المبادئ — تضرب بهذه الحقوق عرض الحائط ، إذا تعارضت مع مصالحها الاستعمارية ، أو قلصت من استغلالها لموارد الثروات فى مناطق نفوذها . وأوضح دليل على ذلك ما يجرى على الساحة الدولية من تدخلات عسكرية لفرض السيطرة على منابع البترول ، أو لبسط الهيمنة على المواقع الاستراتيجية ، وإخضاع الحكومات لنفوذها وسيطرتها . وليتها التزمت فى حملاتها العسكرية بالقانون الدولى فى تعاملها مع الشعوب ، وفى إدارتها لهذه المجتمعات التى استعمرتها ، بل ضربت بكل المبادئ الإنسانية عرض الحائط ، فطفقت تقتل الآمنين العزل من السلاح ، وتهدم وتدمر المؤسسات بكل أنواعها ، بحجة محاربة الإرهاب ، وما يقومون به هو الإرهاب بعينه ، وإلا فليفسر لى المدافعون عن هذا العدوان ما تقوم به هذه القوى الغاشمة من تدمير الأخضر واليابس ، وما تمارسه من ترميل النساء وتيتيم الأطفال ، بل قتلهم فى كثير من الأحيان واغتصابهم ، مما يروع الآمنين من جراء هذا العمل الهمجى الذى يطحن الأبرياء والمساكين .

إن ما تقوم به هذه الجيوش من الجنود الرسميين ، والمقاتلون المرتزقة الذين يستعين بهم هؤلاء المعتدون على أوطان الغير ، يتناقض كلية مع ما تدعو إليه أبواق دعايتهم من الدعوة إلى حماية حقوق الإنسان ، ويتعارض مع ما يتفاخر به هؤلاء من حضارة ، وينافى ما يوحون به إلينا بأن شعوبهم وصلت إلى أعلى درجات الرقى والحضارة فى القرن الواحد والعشرين ، بل إن هذه الأعمال الوحشية التى يرتكبونها مع شعوب الدول النامية فاقت ما كانت ترتكبه الجيوش فى العصور الوسطى ، فهى أشبه بأعمال الحروب فى عصور بدائية الإنسان وهمجيته .

فأين هذا من المبادئ التى أوصى بها رسول الله ﷺ أصحابه ، وأمرهم أن يلتزموا بها فى قتالهم مع الأعداء ، فلم يقاتل رسول الله ﷺ إلا فى الظروف التى لا تسمح إلا بالقتال ، فإذا لاحت بارقة أمل فى تجنب القتال مال إلى السلم وكف أصحابه عن سفك الدماء ، فكان مما وصى به أمراء جيشه حين وجههم لدخول مكة ، ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم . وإمعاناً فى تجنب القتال وعدم سفك الدماء ، أمر أن ينادى فى الناس أن رسول الله ﷺ يقول : " **من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن .**"

وهذا إجراء حضارى لم تعرفه جيوش الأمم التى تدعى أنها متقدمة ، وتزعم أنها تتصرف بأسلوب حضارى ، ولم تباشره جيوش " العالم المتحضر " فى ذلك القرن الذى ملئ بنداءات وشعارات تذكر الناس صباح مساء عبر وكالات الأنباء وأجهزة الإذاعات المرئية والمسموعة والمقروءة بما ينبغى أن يكون عليه سلوك الإنسان المتحضر . فما الفظائع التى ارتكبت فى القرن الماضى ، ولا زالت ترتكب فى هذا القرن الواحد والعشرين بعيدة عن أذهاننا ، ولن ننسى ما يرتكب من وسائل الفتك والتعذيب للمدنيين العزل والأطفال الأبرياء ، ولن يمحى من ذاكرتنا ما يرتكب كل يوم من فظائع فى حق الإنسانية على أيدى من يزعمون أنهم دعاة الحضارة ، وأرباب التقدم ، وحاملو لواء المدنية .

بعد أن دخل المسلمون مكة ، طاف رسول الله ﷺ بالبيت ، ثم قام على باب الكعبة ونادى فى الناس : " **يامعشر قريش ! إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس لآدم ، وآدم من تراب ...** " ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات : 13] ، ثم قال : " **يا معشر قريش ! ما ترون أنى فاعل بكم ؟** قالوا خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : " **اذهبوا فأنتم الطلقاء .** "

يجب أن يتنبه المتشدقون بالحضارة ، وبما ينبغى أن يكون عليه تصرف الرجل المتحضر إلى نقطتين هامتين فى هذا الخبر :

أولاهما : دعوة الرسول ﷺ – وهو فى قمة انتصاره ، حيث الظروف مدعاة للفخر والتباهى – الناس إلى نبذ التفاخر بالأنساب و الأحساب ، والتعالى على الناس بما يملكه الإنسان من مال زائل ، وجاه وسلطان لا يدخلان فى تقييم الإنسان فى مجال السلوك والأخلاق .

وثانيهما : العفو العام عن أهل مكة ، وهو الذين آذوه ، وطردوه من بلده ، ونقضوا العهد والميثاق الذى أبرموه معه قبل سنتين .

ألا يعد هذا دليلاً واضحاً على أن الإسلام يلزم المسلمين بأن يتجنبوا القتال كلما أمكن ذلك ؟ أيوجد مثيل لهذا الموقف فى عالمنا الذى ملئ بالمتشدقين بالحضارة وبالسلوك الحضارى ؟ ثم بعد هذا ، أهناك مجال لتصديق من يدعى أن الإسلام انتشر بالسيف ؟

لا ، فقد وضح وضوحاً لا لبس فيه أنه يدعو إلى السلام ، وأن المسلمين لا يلجأون إلى القتال إلا فى حالة الدفاع ، أو لتأمين حرية العقيدة ، حيث لا يكون هناك طريق آخر لتأمينها ، يقول الله تعالى : ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ ﴿١٩٤﴾ ﴾ [البقرة : 194]